نور من الصحراء : (١)

هل تعـــــــلم ؟

للأستاذ خلف القاضى

المدرس بالناصرية

(١) أن هناك طفلا نشأ يتيما فقيرا ، فى بلاد الشرق ، ثم كان سيد الناس ؟.

(٢) وأنه تربى فى البادية ، ورعى الماشية ، و ارتحل للتجارة ، وكان أجمل الناس ؟ .

(٣) وهل تعرف أنه لم يتعلم الكتابة ، ولم يدخل مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، وكان أفصح الناس ؟ .

(٤) وهل تعلم أنه شهر بين قومه ولداته ، بالأمانة والصدق ، فكان أنبل النـاس ؟ .

(٥) وأنه تزوج — وهو فى الخامسة والعشرين — سيدة طاهرة ، كان لها أثر عظيم فى توجيه حياته ، ولم يَتْبن بغيرها ، حتى فارقت الحياة ، وقد شارف الخمسين . فكان أوفى الناس ؟ .

(٦) وهل تعلم أنه كان يحب العزلة ، ويطيل التأمل ، وينأى عن لهو الحياة فى قمم الجبـال ؟ ،

(٧) ثم هل تعلم أنه أذاع فى عشيرته ، أنه رسول كريم ، وصاحب مذهب جديد ؟ .

(٨) وأن معه كتاباً مجيدا ، اجتمع العرب ، واقترفوا ، على أن يأتوا بمثله فعجزوا ؟ .

(٩) وهل بلغك أن فريقا من الناس ، حُنَفَـاء ، آمنوا به ، فعذبوا وفتنوا

(١) القيت هذه الكلمة فى مدرسة الناصرية احتفالا بعيد الهجرة

فهاجروا بدينهم الحديث ، إلى هضاب الحر النائية ، وتركوا الوطن الغالى ، والوليد المحبوب ؟

(١٠) إنك تعرف أن بعض المدن فى الحرب ظلت محاصرة أشهرا رهيبة ذاقت فيها الويل والحرمان .

ولكنك لا تعرف أن « قريش » حاصرت بنى هاشم وبنى المطلب فى شعب الجبل . ثلاثة أعوام ، لقوا فيها القطيعة والسغب والظمأ والعرى ؛ لأنهم رفضوا أن يسلموا إليهم اليتيم ليقتلوه ! ..

(١١) وهل تصدق أن عمّاله وامرأة لعمه ، وأقرب الناس إليه ، كانوا يضعون الشوك . فى طريقه ، ليمنعوا المؤمنين زيارته ؟

(١٢) وهل صحيح أن دينه الجديد ، انتشر خارج بلاده ، وحورب فى وطنه ؟ .

(١٣) ألا تأسف إذ أنبأتكَ أن سَرَاة قومه تآمروا على اغتياله ، فحرسوا بيته ، وهموا بقتله ؟ .

(١٤) ألا يروعك إذا سمعت أنه فر منهم ، ولم يركب طائرة ، تحلق فى أجواز الفضا ، أو بارجة تشق طريقها فى عباب الماء ، تخفى سرها ، كما يفعل الهاربون ، من الأسر والنار ؟ .

(١٥) وهل تؤمن بأنه اختبأ فى مكان ، كان مغطى بخيط العنكبوت ، ولم يتحصن وراء خط « ماجنو » أو خلف سور الصين ؟

(١٦) وهل نزعم أنه وجد فى البلد البعيد ، أنصارا يحبهم ويفدونه ، وأعداء يودهم ويحسدونه ؟ .

(١٧) هل نسيت « جوبلز » ورجاله ، و « الطابور » الخامس ودعاته ؟ إنهم كانوا أبواق دعاة ، وأصحاب هزيمة ، ومؤلفى أكاذيب ، إنهم كانوا خطرا على حياته ، وحليفا لأعدائه ، وحربا متصلة على دينه ، إنهم اليهود . إنهم

المنافقون الذين كانوا يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره ؟

(١٨) هل تعرف أن الآيات الباهرة فضحتهم ، وأن السيف القاهر أهلكهم ، وأن الجلاء الشامل أفقرهم وأذلهم ؟

(١٩) وهل تعتقد أن هذا الطريد المغلوب ، والهارب المقهور يعود بعد سنوات ثمان — إلى بلده الأمين ، منتصرا وفاتحا ، ويمن على خصومه وقومه بالحياة والحرية ، ويقول : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ؟ .

(٢٠) وهل يسمح لى بان أقول : إنه السنة العاشرة من هجرته ، يكمل الدين ويسود الإيمان ، وتحطم الأصنام ، ويمحى الشرك ، وتموت العصبية ، ويحل الإخاء ، والمساواة ، والحرية ، فى بلاد الوثنية ، ومستقر الجاهلية ؟ .

(٢١) هل تعرف أن هذا الثائر ترصد له الموت مرة ، وانتظره القتل مرات : فمرة يهرب من السيف المنتقم الغادر ، ليصبح سرا فى بطون القفار . وحينا تحرسه العناية من سهام الحرب الفاجرة ، وعدوانها الأثيم . وتارة تقذه السماء ، من صخرة عاتية ، كادت تلقى عليه من مرتفع . . . ويوما يسعده الوحى ، فينجو من طعام شهى مسموم ، كان قد أهدى إليه . . وليلة يتحالف جماعة المنافقين ، على الفتك به ، بإلقائه عن راحلته ، فى مكان ما ، وعر الصعود ، وهموا . . . وهموا بما لم ينالوا برعاية الله ؟

(٢٢) وبعد : —

هل تدرى أنه رفع منزلة المرأة فى المجتمع ، وصان كرامتها من الهوان بل رد لها الحياة بعد الموت ، ومنحها حق التملك والتوريث ؟

(٢٣) وهل تذكر أنه المحرر الأول للرقيق والناصر الأعز للديمقراطية والمنادى بالمساواة ، بين الأشراف والموالى ، والقائل فى أحاديثه : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

(٢٤) ألا يعجبك أنه فرض الزكاة على الغنى ، وأوجب الإحسان للفقير والمسكين ، وابن السبيل ، وحرم الاحتكار ، والربا بين الناس .

(٢٥) هل تعرف صاحب ذلك النور المتألق ، فى سماء فارس، وعلى جبال الهند، وفوق سهول العراق ، وفى جنات الأردن ، وتحت سماء الصحراء ؟

(٢٦) هل تعرف منبع ذلك النور النفاذ ، الذى غمر وادى النيل ، ولمع فى ربوع الأندلس ، وطاف بشاطىء البسفور ، وأضاء أودية الصين ؟

(٢٧) هل تعرف باعث النور المنبثق ، الذى فاضت به الدنيا عدلا وهديا، وضرب المثل الأعلى ، فى التمسك والثبات على المبدأ ، والتفانى فى سبيل العقيدة .

وكان البطل الخالد ، فى الجهاد والمثابرة ، والتضحية والمغامرة ؟

(٢٨) إنه الذى مات ، ولم يعقب ولدا حياً ، يورثه الملك ، أو ينازع فى السلطان

(٢٩) إنه الذى مات ، ولم يترك قصور الخلد ، ولا إيوان كسرى ولا رصيد الذهب فى مصارف المال .

(٣٠) إنه الزعيم الذى مات ، ودرعه مرهونة بثلاثين درهما . لرجل من اليهود ؟

(٣١) إنه محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، الذى ولد بمكة ومات فى المدينة

(٣٢) انه محمد الذى احتفل العالم الاسلامى فى بقاع الأرض بعامه الجديد

(٣٣) إنه محمد الذى يذكره الموحدون فى صلواتهم ، خمس مرات كل يوم

(٣٤) إنه محمد الذى يهتف به المسلمون فوق منائرهم ، وعلى منابرهم.

(٣٥) إنه محمد صاحب كتابهم ، الذى يدرس فى معاهدهم ، ويتلى فى محاريبهم وتذيعه أمواج الأثير — من وراء البحار — فى المساء والصباح . إلى المستمع الكريم .

(٣٦) إنه محمد النبى الأمى . الذى يخاطبه ربه فيقول : وإنك لعلى خلق عظيم .

صلاة عليك ، وتحية إليك .... من « خلف القاضى » .